صورة وصفية دمشقية من القرن الماضي

العجــــوزان !

للأستاذ على الطنطاوى

... أغلق الشيخ الباب فتنفس أهل الدار الصعداء ، وأفاقوا إفاقة من يودع الحلم الرعب ، أو الكابوس الثقيل ، ثم انفجروا يصيحون ، يفرغون ما اجتمع فى حلوقهم من الكلمات التى حبسها وجود الشيخ فلم ينبسوا بها . وانطلقوا فى أرجاء الدار الواسعة ـ والأولاد (صغار أولاد الشيخ وأحفاده) يتراكضون ويتراشقون بما تقع عليه أيديهم من أثاث الدار ، ويتراشون بالماء ، أو يدفع بعضهم بعضاً فى البركة الكبيرة التى تتوسط صحن الدار ، فيغوص الولد فى أمواهها ، فتعدو إليه أمه أو من تكون على مقربة منه فتخرجه بين قهقهة الصغار وهتافهم وتقبل عليه لتنضو عنه ثيابه وتجفف خشية المرض جسده ، فإذا هو يتفلّت من بين يديها ، ثم يركض وراء إخوته وأبناء عمه ليأخذ منهم بالثأر ، والماء ينقط من ثيابه على أرض الدار المفروشة بالرخام الأبيض والمرمر الصافى ، التى أنفقت الأسرة ساعات الصباح كلها فى غسل رخامها ومسحه بالإسفنج ، حتى أضحى كالمرايا المجلوّة أو هو أسنى ... وعلى السجاد الثمين الذى يفرش القاعات الكبيرة والمخادع ، وهم ينتقلون من غرفة إلى غرفة ، ومن درج إلى درج ، ويفسدون ما يمرون به من الأغراس التى لم تكن تخلو من مثلها دار فى دمشق ، من البرتقال والليمون والكباد والفراسكين والنارنج والأترج (الطرنج) وقباب الشمشير (زينة الدور) والياسمين والورد والفل ؛ تتوسط ذلك كله الكرمة (العالية) التى تتمدد على (سقالة) تظلل البركة تحمل العنب (البلدى) الذى يشبه فى بياضه وصفائه اللؤلؤ ، لولا أن الحبة الواحدة منه تزن أربع حبات مما يسمى فى مصر والعراق عنباً ... والجدة تعدو وراءهم ما وسعها العدو تصرخ فيهم صراخاً يكاد من الألم يقطر منه الدم :

« وَلَكْ يا وَلَدْ انت وَيّاه ... يقصف عمرى منكم ... وسخّتم البيت ... يا ضيعة التعب والهلاك ... الله يعجل علىّ بالموت حتى أخلص منكم ! »

فيختلط صراخها بصياح الأولاد ، وضحك الضاحكين منهم وبكاء الباكين ، وهم يتضاربون ، ويسقطون ما يمرون به من الأوانى والكئوس ... ولا يصغى لنداء الجدة أحد منهم ...

***

ويلبثون على ذلك حتى ينادى المؤذن بالظهر ، فتنطفئ عند ذلك شعلة حماستهم ، وتتخافت أصواتهم ويحسون بدنوّ ساعة الخطر ، فينزوى كل واحد منهم فى ركن من أركان الدار ينظر فى ثيابه يحاول أن يزيل ما علق بها من الأوساخ ، أو أن يصلح ما أفسد منها ، كيلا يبقى عليه أثر يعلن فعلته ، ويتذكرون ما هشموا من أثاث المنزل حين عاثوا فيه مخربين ، فيجمع كل واحد منهم ما يقدر عليه من حطام الأوانى فيلقيه فى زاوية الزقاق فى غير الطريق الذى يمر منه الشيخ ، ويرجع النسوة إلى أنفسهن فيسرعن فى إعداد الطعام وإصلاح المنزل . وتدور العجوز لتطمئن على أن قبقاب الشيخ فى مكانه لم يزح عنه شعرة ، لا تكل هذه (المهمة) لكنّتيها ولا لبناتها ، لأنها لم تنس طعم العصى التى ذاقتها منذ أربعين سنة ... فى ذلك اليوم المشئوم الذى وقعت فيه الكارثة ولم يكن قبقاب الشيخ فى مكانه ، وضم إليها القدر مصيبة أخرى أشد هولاً وأعظم خطراً ، فتأخر صبّ الطعام عن موعده المقدس (فى الساعة الثامنة الغروبية) عشر دقائق كاملات ...

وللشيخ حذاء (كندرة) للعمل، وخف (صرماية) للمسجد، و (بابوج) أصفر يصعد به الدرج ويمشى به فى الدار ، (وقبقاب) للوضوء ، وقد تخالف الشمس مجراها فتطلع من حيث تغيب ، ولا يخالف الشيخ فى عادته فيذهب إلى المسجد بحذاء السوق ، أو يتوضأ بباجوج الدرج ...

وتعد العجوز قميص الشيخ ومنديله ، وتهيئ (البقجة) التى تضع فيها ثياب السوق بعد أن تساعده على نزعها وتطويها على الطريقة التى ألفتها وسارت عليها منذ ستين سنة ، من يوم تزوج بها الشيخ وكان فى العشرين وكانت هى بنت ست عشرة ، وهى لا تزال تذكر إلى الآن كيف وضح لها أسلوبه فى الحياة وبيّن لها ما يحب وما يكره ، وعلمها كيف تطوى الثياب وكيف تعدّ القبقاب ، كما علمها ما هو أكبر من ذلك وما هو أصغر وحذرها نفسه وخوفها غضبه إذا هى أتت شيئاً مما نهاها عنه ، فأطاعت ولبثت هذا العمر كله وهى سعيدة مسعدة طائعة مسرورة لم تخالف

إلا فى ذلك اليوم المشئوم وقد لقيت فيه جزاءها ، ونظرت العجوز الساعة فإذا هى فى منتصف الثامنة . لقد بقى نصف ساعة . . . ففرقت أهل الدار ووزعت عليهم الأعمال ، كما يفرق القائد ضباطه وجنده ويلزمهم مواقفهم استعداداً للمعركة ، فأمرت بنتها الكبرى بإعداد الخوان للطعام ، وبعثت بالأخرى لتمسح أرض الدار التى وسخها الأولاد ، وأمرت كنتيها بتنظيف وجوه الصغار وإبدال ثيابهم حتى لا يراهم الشيخ إلا نظافاً ... ثم ذهبت ترد كل شىء إلى مكانه ؛ ولكل شىء فى هذه الدار الواسعة موضع لا يريمه ولا يتزحزح عنه ، سنة سنّها الشيخ لا تنال منها الغِيَر ولا تبدلها الأيام ، فهو يحب أن يضع يده على الشىء فى ظلمة أو نور ، فى ليل أو نهار ، فيلقاه فى مكانه . ولما اطمأنت العجوز إلى أن كل شىء قد تم ، نظرت فى الساعة فإذا هى دون الموعد بخمس دقائق ... فاستعدت وغسلت يديها ووجهها ولبست ثوباً نظيفاً كمهدها ليالى عرسها لم تبذله ، واستعد أهل الدار بكبارهم وصغارهم . فلما استوى عقرب الساعة الثامنة أرهفوا أسماعهم فإذا المفتاح يدور فى الباب . إنه الموعد ولم يتأخر الشيخ عن موعده هذا منذ ستين سنة إلا مرات معدودة عرض له فيها شاغل لم يكن إلى دفعه من سبيل . فلما دخل أسرعوا إليه يقبلون يده وأخذت ابنته العصا فعلقتها فى مكانها ، وأعانته على خلع الحذاء وانتعال البابوج الأصفر ، وسبقته زوجته إلى غرفته لتقدم إليه ثياب المنزل التى يتفضل بها

* * *

غاضت الأصوات ، وهدأت الحركة ، وعادت هذه الدار الواسعة إلى صمتها العميق ، فلم يكن يسمع فيها إلا صوت الشيخ الحازم المنزن ، وأصوات أخرى تهمس بالكلمة أو الكلمتين ثم تنقطع ، وخطى خفيفة متلصصة تنتقل على أرض الدار بحذر وخوف ... وكانت غرفة الشيخ التى يؤثرها على يمين الإيوان العظيم ذى القوس العالى والسقف المنقوش الذى لا تخلو من مثله دار فى دمشق ، والذى يتوجه أبداً إلى القبلة ليكون لأهل الدار مصيفاً يغنيهم عن ارتياد الجبال فى الصيف ، ورؤية ما فيها من ألوان الفسوق ، يشرفون من على الصحن المرمرى وأغراسه اليانعة وبركته ذات النوافير . . وكانت غرفة الشيخ رحبة ذات عتبة مستطيلة تمتد على عرض الغرفة التى تعلو عن الأرض أكثر من ذراع كسائر غرف الدور الشامية ، تغطيها (تختبية) مدّ عليها السجاد وفرشت فى جوانبها (الطراريح) : الوسائد والمساند ، وقامت فى صدرها دكة أعلى ترتفع عن (التختبية) مقدار ما تهبط عنها العتبة . وكان مجلس الشيخ فى يمين الغرفة يستند إلى الشباك المطل على رحبة الدار ، وقد صفّ إلى جانبه عليه وأدواته ، وهنّ حق المنشوق الذى يأخذ منه بيده ما ينشقه من التبغ المدقوق الذى ألفه المشايخ فاستحلوه بلا دليل حتى صاروا يشتمّونه فى المسجد كما حرموا الدخان بلا دليل ... وإلى جنب هذا الحق علبة نظارات الشيخ ومنديله الكبير والكتابان اللذان لا ينتهى من قراءتهما : الكشكول والمخلاة ، وفى زاوية الشباك أكياس بيضاء نظيفة مطوية يأخذها معه كل يوم حينما يغدو لشراء الطعام من السوق ، فيضع الفاكهة فى كيس واللحم فى آخر ، وكل شىء فى كيسه الذى خصصه به ، وهذه الأكياس تغسل كل يوم وتعاد إلى مكانها . وعن يساره خزانة صغيرة من خشب السنديان المتين أشبه الأشياء بصندوق الحديد ، لا يدرى أحد حقيقة ما فيها من التحف والعجائب ، فهى مستودع ثروة الشيخ وتحفه . ومما علم أهل الدار عنها أن فيها علباً صغاراً فى كل علبة نوع من أنواع النقد : من النحاسات وأنصاف المتاليك والمتاليك وأمّات الخمسين وأمات المائة والبشالك والزهراويات إلى المجيديات وأجزائها والليرات العثمانية والإنكليزية والفرنسية ، كل نوع منها فى علبة من هذه العلب ، فإذا أصبح أخذ منها مصروف يومه الذى قدره له يوم وضع (ميزانية) الشهر ، ثم إذا عاد نظر إلى ما فضل معه ، فضم كل جنس إلى جنسه . وفى هذه الخزانة (وهى تدعى فى دمشق الخرستان) ، الغفار العجيب الذى كان يخرجه إذا ذهب ليلاً (وقلما كان يفعل) يستضىء به فى طرق دمشق التى لم يكن فيها أنوار إلا أنوار النجوم ومصابيح الأولياء وسرجهم ، وأكثر هذه السرج يضاء ببركة الشيخ عثمان نهاراً ويطفأ ليلاً ... وفيها الكأس التى تطوى ... والمكبرة التى توضع فى شعاع الشمس فتحرق الورقة من غير نار ... وفيها خواتم العقيق التى حملها الشيخ من مكة ، فأهدى إلى أصحابه قسما منها وأودع الباقى خزانته ... وفيها الليرات الذهبية التى كان يعطيها الأطفال فيأكلونها لأن حشوها (شكولاتة) ... وكانت هذه هى عجائب الدار السبع !

وأمام الشيخ (الرحلاية) وفوقها (السكمجاية) ، وهى صندوق صغير فيه أدراج دقيقة ومخابىء وشقوق للأوراق ،

وبيوت للأقلام فى صنعة لطيفة ، وهيئة غريبة ، كانت شائعة يومئذ فى دمشق ، موجودة فى أكثر البيوت المحترمة ...

والويل لمن يمس شيئاً من أدوات الشيخ أو يجلس فى مكانه. ولقد جنى الجناية أحد الأطفال مرة فعبث بعلبة النشوق فأسرعت أمه فزعة وأخذتها منه وأبعدته وأعادتها إلى مكانها ، فازاحت لشؤم الطالع عن موضعها مقدار أنملة وعرف ذلك الشيخ ـ فكان نهار أهل المنزل أسود ـ وحرموا بعده الدنو من هذا الحمى !

* * *

كان الشيخ فى الثمانين ولكنه كان متين البناء شديد الأسر ، أحاط شبابه بالعفاف والتقى ، فأحاط العفاف شيخوخته بالصحة والقوة ، وكان فارع الطول عريض الأكتاف ، لم يشك فى حياته ضعفاً ، ولم يسرف على نفسه فى طعام ولا شراب ولا لذة . ولم يحد عن الخطة التى اختطها لنفسه منذ أدرك . فهو يفيق سحراً والدنيا تتخطر فى ثوب الفتنة الخاشعة ـ والخشوع الفاتن ـ والعالم ساكن لا يمشى فى جوانبه إلا صوت المؤذن وهو يمجد الله فى السحر ، يتحدر من أعلى المنارة فيخالط النفوس المؤمنة فيهزها ويشجيها ، يمازجه خرير الماء المتصل يصعد من نافورة الدار يمجد (هو الآخر) ربه ويسبح بحمده ، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) ، فيقف الشيخ متذوقاً حلاوة الإيمان ، ثم ينطلق لسانه بـ (لا إله إلا الله) تخرج من قرارة فؤاده المترع باليقين ، ثم ينزع ثيابه وينغمس فى البركة يغتسل بالماء البارد ما ترك ذلك قط طول حياته ، لا يبالى برد الشتاء ولا رطوبة الليل . وكثيراً ما كان يعمد إلى قرص الجليد الذى يغطى البركة فيكسره بيده وينغطس فى الماء ثم يلبس ثيابه ويصلى ما شاء الله أن يصلى ، ثم يمشى إلى المسجد فيصلى الصبح مع الجماعة فى مجلس له وراء الإمام ما بدله يوماً واحداً ، ويبقى مكانه يذكر الله حتى تطلع الشمس وترتفع فيركع الركعتين المأثورتين بعد هذه الجلسة ، ويرجع إلى داره فيجد الفطور معداً والأسرة منتظرة ، فيأكل معهم اللبن الحليب والشاى والجبن أو الزبدة والزيتون والمكدوس ، ثم يغدو إلى دكانه فيجدها مفتوحة قد سبقه ابنه الأكبر إليها ففتحها ورتبها

والدكان فى سوق البزازين أمام قبر البطل الخالد نور الدين زنكى ، وهى عالية قد فرشت أرضها بالسجاد وصفت أثواب البز أمام الجدران ، ووضعت للشيخ وسادة يجلس عليها فى صدر الدكان ويباشر أبناؤه البيع والشراء بسمعه وبصره ، ويدفعون إليه الثمن ، فإذا ركد السوق قليلاً تلا الشيخ ما تيسر من القرآن أو قرأ فى (دلائل الخيرات) أو تحدث إلى جار له مسن حديث التجارة ، أما السياسة فلم يكن فى دمشق من يفكر فيها أو يحفلها ، وإنما تركها الناس للوالى والدفتردار والقاضى والخمسة أو الستة من أهل الحل والعقد ، وكان هؤلاء هم الحكومة (كلها ...) وكان الشيخ مهيباً فى السوق كهيبته فى المنزل ، تتحاشى النسوة المستهترات الوقوف عليه ، وإذا تجرأت امرأة فكشفت وجهها أمامه لترى البضاعة ، كما تكشف كل مستهترة ، صاح بها فأرعبها وأمرها أن تستتر وأن تلزم أبداً حدود الدين والشرف ، وكانت تبلغ به الهيبة أن يعقد الشباب بينهم رهاناً ، أيهم يقرع عليه بابه ، ويجعلوا الرهان ريالاً مجيدياً أبيض ، فلا يفوز به أحد منهم .

وكان الشيخ قانعاً بحق أهله لا يرد لهم طلباً ، ولا يمنعهم حاجة يقدر عليها ، ولكنه لا يلين لهم حتى يجرؤوا عليه ، ولا يقصر فى تأديب المسيء منهم ، ولا يدفع إليهم الفلوس أصلاً . وما لهم والفلوس وما فى نسائه وأولاده من يخرج من الدار ليشترى شيئاً ؟ وما لهم ولها وكل طعام أو شراب أو كسوة أو حلية بين أيديهم ، وما اشتهوا منه يأتيهم ؟ ولماذا تخرج المرأة من دارها ، إذا كانت دارها جنة من الجنان بجمالها وحسنها ، ثم إن فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ؟

* * *

يلبث الشيخ فى دكانه مشرفاً على البيع والشراء حتى يقول الظاهر : (الله أكبر) ، فينهض إلى الجامع الأموى وهو متوضئ منذ الصباح ، لأن الوضوء سلاح المؤمن ، فيصلى فيه مع الجماعة الأولى ، ثم يأخذ طريقه إلى المنزل ، أو يتأخر قليلاً ليكون فى المنزل عند ما تكون الساعة فى الثامنة . أما فى العصر فيصليه فى مسجد الحى ، ثم يجلس عند (برو العطار) فيتذاكر مع شيوخ الحى فيما دق وجل من شؤونه ... إختلف أبو عبده مع شريكه فيجب أن تؤلف جمعية لحل الخلاف ... والشيخ عبد الصمد فى حاجة إلى قرض عشر ليرات فلتهيأ له ... وعطا افتدى سلط ميزابه على الطريق وآذى السابلة فلينصح وليجبر على رفع الأذى عن الناس ... !

أى أن هذه الجماعة محكمة ، ومجلس بلدى ، وجمعية خيرية إصلاحية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وكان (برو العطار)

بخبر اللجنة ووكيلها الذي يعرف أهل الحي جميعاً برجالهم ونسائهم، فإذا رأى رجلاً غريباً عن الحي يحوم حول أحد المنازل سأل عنه من هو؟ وماذا يريد؟ وإذا رأى رجلاً يماشي امرأة نظر لعلها ليست زوجته ولا أخته، ولم يكن في دمشق صاحب مروءة يماشي امرأته في طريق فتعرف به حيثما سارت، بل يتقدمها أو تتقدمه ويكون بينهما بعد بعيد، وإذا بنى رجل غرفة يشرف منها على نساء جاره أنبأ الشيخ وأصحابه فألزموه حده، وإن فتح امرؤ شباكاً على الجادة سدوه، لأن القوم كانوا يحرصون على الستر ويكرهون التشبه بالإفرنج، فالبيوت تبدو من الطريق كأنها مخازن للقمح لا نافذة ولا شباك، ولكنها من الداخل الفراديس والجنان. فكان الحي كله بفضل الشيخ وسعيه نقياً من الفواحش صيناً؛ أهله كأهل الدار الواحدة لا يضن أحد منهم على الآخر بجاهه ولا بماله؛ وإذا أقام أحدهم وليمة، أو كان عنده عرس أو ختان، فكل ما في الحي من طباق وسوان وكؤوس تحت يده وملك يمينه

* * *

مر دهر والحياة في هذه الدار سائرة في طريقها لا تتغير ولا تتبدل ولا تقف. مطردة اطراد القوانين الكونية، حتى جاء ذلك اليوم... ودقت الساعة دقاتها الثمان، وتهيأ أهل الدار على عادتهم لاستقبال الشيخ؛ ولكن العجوز الطيبة والزوجة المخلصة لم تكن بينهم، وإنما لبثت مضطجعة على الأريكة تشكو ألماً شديداً لم يفارقها منذ الصباح. وأدار الشيخ مفتاحه ودخل فلم يرها وهي التي عودته الانتظار عند الباب، ولم تحد عن هذه العادة مدة ستين سنة إلا أيام الوضع ويوم ذهبت لتودع أباها قبل وفاته؛ فسأل الشيخ عنها بكلمة واحدة أكلها بإشارة من يده، فخبرته ابنته وهي تتعثر بالكلمات هيبة له وشفقة على أمها، أنها مريضة. فهز رأسه ودخل، فلما وقع بصره عليها لم تتمالك نفسها فنهضت على غير شعور منها تقبل يده، فلما مست أصابعه أحس كأنما لمسته جمرة ملتهبة؛ وكان الشيخ على ما يبدو من شدته وحزمه وحبه النظام، قوي العاطفة، محباً لزوجته مخلصاً لها، فرجع من فوره ولم يأكل، ولم يدر أحد في المنزل لماذا رجع ولم يجرؤ على سؤاله واكتفوا بتبادل الآراء في تعليل هذه الحادث الغريب، الذي يشبه في أنظارهم خروج القمر عن مداره. ومضت على ذلك ساعة أو نحوها، ثم سمع المفتاح يتحرك في الباب فسكتوا وحبسوا الأنفاس وترقبوا هذه المفاجأة. فدخل الشيخ وصاح: «روحوا من الطريق»؛ فاختبأ النسوة ليدخل الضيف، غير أنهن نظرن من شق الباب — على عادة نساء البلد — فأبصرن الطبيب وكن يعرفنه لتردده على المنزل كلما تردد عليه المرض... وكان الطبيب شيخاً وكانت بينه وبين العجوز قرابة، ومع ذلك فقد أمر الشيخ العجوز بلبس ملاءتها وألا تظهر منها إلا ما لا بد من إظهاره؛ ثم أدخله عليها، فجس نبضها، وقاس حرارتها، ورأى لسانها. وكان ذلك منتهى الدقة في الفحص في تلك الأيام، ثم خرج مع الشيخ يسأله حتى بلغا الباب، فودعه الشيخ وعاد، فأمر بأن تبقى العجوز في غرفتها وأن تلزم الحمية وتتناول العلاج الذي يأتيها به...

* * *

مرت أيام طويلة والعجوز لم تفارق الفراش، وكان المرض يشتد عليها حتى تذهل عن نفسها، وتغلبها الحمى فتهذي... «صارت الساعة الثامنة... يلا يا بنت، حضري الخوان... والقبقاب؟ هل هو في مكانه...»؟ وتهم أحياناً بالنهوض لتستقبل زوجها؛ وكانت بنتاها وكنتاها يمرضنها ويقمن في خدمتها فإذا أفاقت حدثتهن وسألتهن عن الشيخ هل هو مستريح؟ ألم يزعجه شيء؟ والدار؟ هل هي كما تعهدها أم قد اضطربت أحوالها؟ ذلك همها في مرضها وفي صحتها، لا هم لها سواه

وحل موسم المعقود وهي مريضة فلم تطق على البقاء صبراً، وكيف تتركه وهي التي لم تتركه سنة واحدة من هذه السنين الستين التي عاشتها في كنف زوجها، بل كانت تعقد المشمش والجانرك والباذنجان والسفرجل، منه ما تعقده بالسكر ومنه ما تعقده بالدبس، وكانت تعمل مربى الكباد والبقطين، فيجتمع لها من أنواع المعقودات والمربيات والمخللات (الطرشي) ومن أنواع الزيتون الأسود والأخضر والمفقش والجلط وأشكال المكدوس معمل أمقار (كونسروة) صغير تقوم به هذه الزوجة المخلصة وحدها صامتة، ولا يعيقها ذلك عن تربية أولادها ولا عن إدارة منزلها وتنظيفه ولا عن خياطة أثوابها وأثواب زوجها وبنيها، بل تصنع مع هذا كله البرغل، وتغسل القمح وتعجن العجين، وكذلك كانت الزوجات في القرن الماضي

حل الموسم فكيف تصنع العجوز المريضة...؟ لقد آلمها الأمر وحز في كبدها، وبلغ منها أكثر مما بلغ المرض بشدته